التوبة في شعر شعراء سجون العصرين الإسلامي والأموي

م.م. أحمد سمير خلف

وزارة التربية / مديرية تربية ذي قار / اللغة العربية / ذي قار – العراق

Smera6306@gmail.com

الملخص:

التوبة هي سلوك إنساني، وردُّ فعلٍ يترتب عليه وقوف الإنسان بين يدي الله سبحانه وتعالى طلبًا للعفو والمغفرة، وهذا الوقوف يصاحبه شعور بالندم والانكسار، وعلامات الاستسلام للقضاء والقدر، والاعتراف بالخطأ، رغبة في النجاة من الذنوب والواقع الذي دفعه إلى طلب التوبة، من سلوكيات وأفعال تنافي القيم الأخلاقية، والأعراف السماوية والاجتماعية التي دعت إليها الكتب السماوية والقوانين القبلية السائدة في المجتمع وغيرها، حين يصل الإنسان إلى مرحلة من الشعور بوجوب العودة إلى الطريق المؤدي إلى إصلاح النفس والتخلص من عذابات الحياة الدنيا، فلا يكون أمامه إلَّا باب واحد يطرقه وهو باب التوبة؛ لأنَّه مدرك تمامًا إنْ غُلقت كلُّ الأبواب فهناك باب الله تعالى الذي لا يُغلق بوجهه، ولا سيما أنَّه هو القائل في محكم كتابه العزيز: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾(١).

الكلمات المفتاحية: (التوبة، السجن، دوّار، الخليفة، الرضا النفسي).

Repentance in the poetry of the prison poets of the Islamic and Umayyad eras

Ahmed Samir Khalaf

Ministry of Education / Dhi Qar Education Directorate / Arabic Language / Dhi Qar – Iraq

Abstracts:

Repentance is a human behavior, and a reaction that results in a person standing in the hands of God Almighty, asking for pardon and forgiveness, and this standing is accompanied by a feeling of remorse and brokenness, and signs of surrender to fate and fate, and an admission of error, a desire to escape from sins and the reality that prompted him to seek repentance, in terms of behaviors and actions Contradict the moral values, heavenly and social norms called for by

the heavenly books and the prevailing tribal laws in society and others, when a person reaches a stage of feeling the necessity of returning to the path that leads to reforming the soul and getting rid of the torments of this worldly life, so there is only one door before him that he knocks on, which is the door of repentance ; Because he is fully aware that if all doors are closed, then there is the door of God Almighty, which cannot be closed in His face, especially since He is the one who said in His decisive Holy

Keywords: (repentance, imprisonment, vertigo, caliph, psychological satisfaction).

المقدمة:

الشعراء هم جزء من هذا المكوّن الاجتماعي والنسيج القبلي، غير معصومين من الخطأ والوقوع في الزلل، وقد لا نغالي إذا قلنا: إنَّ الشعراء بصورة عامة مرشحون لارتكاب المعاصي والآثام والوقوع في دائرة الخلاف أكثر من غيرهم؛ لأنَّ الشاعر في مواجهة الآخر تكون الكلمة هي سلاحه، والكلمة لها وقع وأثر على الآخر أشد من وقع السنان، وأكبر من أثر السيف، يقول يعقوب الحموي

وقد يُرجى لجُرح السيف بُرءٌ ولا برءٌ لما جرح اللسان[٢]

كما أنَّ الشاعر في كلِّ زمن يتبنى دائمًا مذهبًا سياسيًا وحزبًا يبشّر له، ويدافع عنه، وهذا يقوده غالبًا إلى خلق أعداء داخل دائرة الخلاف السياسي حتى الاجتماعي، أو يشق له طريقًا في كسب العيش يكون فيه خارجًا عن طاعة الحاكم والعرف السائد، فتجعل منه هذه الممارسات إنسانًا وشاعرًا هائمًا على وجهه في البراري، مشرَّدًا مطلوبًا للقضاء، فيلجأ إلى ممارسات غير مرغوب فيها، منها اللصوصية، والإغارة على الآخر، والتعرض له، فيكون السجن نتيجة حتمية لهذه السلوكيات، والسجون قد عُرفت بقسوتها، وبؤس الحياة فيها، فما يكون منه إلَّا طلب التوبة والمغفرة للخلاص ممَّا هو فيه، فجاء كثير من أشعارهم عبارة عن نصوص ومواثيق وعهود مع الله تعالى من جهة، ومع الحاكم أو الخليفة من جهة أخرى، بطلب التوبة، والتعهد بعدم الرجوع إلى ممارسة السلوكيات والأفعال التي كانت سببًا لدخولهم

إلى السجن، وهذا النوع من الشعر لفت انتباه الباحث؛ لأنَّه عبارة عن متون شعرية تحمل في طيّاتها كثيرًا من مشاعر الضعف والانكسار والندم، والحسرة، على فائت كان فيه الشاعر على علوٍّ من الفخر والتباهي وقدر من الحرية المطلقة التي قابلها حبس موجِع، فاختلطت فيها خوالج الشاعر ومكنوناته الداخلية مع معطيات أُخر نفسية واجتماعية ودينية، نتج عنها نصٌّ شعري، صوَّرَ صدق مشاعر الشاعر وانكساره وضعفه من بعد قوة.

أولًا: التوبة إلى الله تعالى:

يدرك الشعراء أنَّ ما يقومون به من أفعال في حياتهم هو إعراض عن القيم السماوية التي جاء بها الإسلام، ومخالفة للأعراف الاجتماعية والسياسية السائدة، تشعرهم في مرحلة من مراحل حياتهم بأنَّه لا يمكن الاستمرار على هذا النهج؛ لأنَّه قد آلت بهم هذه الأفعال إلى نتائج لا يُحمد عقباها، منها السجن والتشرد، والإقصاء الجسدي والنفسي، فتكون السماء هي وجهتهم والتوبة مطلبهم للخلاص ممَّا هم فيه، فتجيش قرائحهم بمٰ يعتمل في صدورهم، فتنتج لنا نصًّا شعريًا يهيمن عليه نسق الاتكاء على الذات الإلهية، والإيمان بالقدر وقوة السماء بأنَّها سبيلهم الوحيد، يقول علي بن الجهم:

والله بالغ أمره في خلقه ... وإليهِ مصدرنا غدًا والورودُ

ولئن قضيت لقلّما يبقى الذي ... قد كادني (وليجمعنا) الموعدُ[٣]

يدرك الشاعر علي بن الجهم في هذين البيتين أنَّ لا أمرَ ولا قضاءَ ولا قوةَ فوق أمر الله وقضائه وقوته، يوم الوفود عليه، والوقوف بين يديه، فالشاعر وبعد أن قضى ردحًا من الزمن كان قد قضاه في مجالسة الخلفاء وأهل الشأن وندامة المتوكل وما كان يرفق ذلك من سحر الليل الجواري إلى جانب مجموعة من الشعراء أمثال الحسين بن الضحَّاك، ومروان بن أبي الجنوب، وأحمد بن حمدون، فضلًا المغنين والقيان والمضحكين، وما رافق هذه الحياة الداعبة الراخية من خلافات مع الخلفاء والحكماء، كان السجن نتيجة لها، أُودع فيه بأمر من

المتوكل، ولم يكتفِ المتوكل بسجنه، بل أمر أن يتم تقييده، وهو داخل السجن، ليقول في هذا:

فلا تجزعي إذا ما رأيت قيوده فإنَّ خلاخيل الرجالِ قيودُها(٤)

إذن كل تقلبات هذه الحياة وصروف الدهر التي عاشها الشاعر من رخاء ثم سجن وعذابات وقيود، قادته إلى التوبة واللجوء إلى طلبها لتُكشف عنه البلاءات، يقول:

إلى اللهِ فيما نابنا نرفعُ الشكوى ففي يده كشف الضرورة والبلوى(٥)

وليس هذا شأن ابن الجهم وحده بل أغلب الشعراء الذين تجرّعوا مرارة السجن ولوعة الفراق، والبُعْد عن الأهل والأحبة، وهم قابعون داخل السجون، فاشتركوا بشيمة واحدة وهي التوبة وطلب العفو والمعفرة، بعد نكد الأعداء وصروف الدهر، ممَّا قداهم إلى طرق باب الله تعالى اعترافًا وإقرارًا بأخطائهم التي قادتهم إلى نهايات غير سعيدة، يقول عُبيد بن أيوب العنبري:

يا ربِّ قد خَلَفَ الأعداء واجتهدوا إيمانهم أنّني من ساكني النار

أ يحلفون على عمياء ويحهُم ما علمهم بعظيمِ العفو غفَّارِ

إنِي لأرجو من الرحمن معفرةً ومِنَّةً من قوامِ الدين جبَّارِ

وما أخافُ هلاكًا بعد عفوهما وما يفوتهما المستوكل الساري

أنا الغلامُ عتيقُ اللهِ مُبتهل بتوبةٍ بعد إحلاء وإمراري

خلّيتُ بابات جهلٍ كنتُ أتبعُها كما يودّعُ سَفْرٌ عَرصَة الدارِ

أني لأعلمُ أنِي سوف يتركني صحبي رهينةُ تُربٍ بين أحجارِ

فـــردًا برابيـــةً أو وســـط مقبـــرةٍ تسـفي علـيّ ريـاح البـاري الـذاري(٦)

فالشاعر وبعد رحلة من الدهر كان فيها لصًّا مُبرمًا مخلوعًا من قومه تائهًا في مجاهل الأرض، يرافق الغول، ويبايت الذئاب والأفاعي، يقول:

أراني وذئب الفرخدين بعدما تدانى كلانا يشمئزّ ويذعر(٧)

كلُّ هذه المعطيات وبعد أن أحس بدنو الأجل والشعور بالوحدة والضياع، وهو عامل نفسي بالدرجة الأولى شعر بضرورة اللجوء إلى الله تعالى، وطلب التوبة، للشعور بالطمأنينة والإحساس بالرضا، فيقول:

أنا الغلامُ عتيقُ اللهِ مُبتهل بتوبةٍ بعد إحلالٍ وإمرار(٨)

الإحساس بالذنب والوحدة، وأنَّ الموت هو المصير المحتم، ولا سيما نحن إزاء شاعر مدرك كل الإدراك لنهاية الإنسان ومصيره، وأنَّه لا يبقى له من هذه الدنيا إلَّا الأعمال الصالحة، وأنَّه لا يبقى له إلَّا الذكر الطيب، وما الأصحاب وملذات الدنيا إلَّا محطة من محطات الحياة، كل هذا عبَّرَ عنه الشاعر بنصوص شعرية عكست ما يعتمل في نفسه، ويجيش في مشاعره بشيء فيه كثير من الأسى والندم، والاغتراب النفسي الداخلي، والشعور بالضياع، ذلك الضياع الذي قاده إلى اللجوء إلى الخالق المعبود، وطرق بابه، عسى أن ينال شيئًا من الرضا، والإحساس بالطمأنينة، بعد أن قادتهم صروف الدهر أمام حقيقة واحدة ألا وهي أنَّ لا ملجأ إلَّا الله تعالى، ولا مرجع إلَّا الرجوع إلى طاعته والفوز بمغفرته ورجائه للخلاص من متاعب الدنيا، وظلام السجون وقسوتها، والخوف من المجهول، فمنعم النظر في هذه النصوص يجد أنَّ الشعراء حين يحسّون بقلّة المُجير والمنقذ يطرقون باب الله مؤمنين موقنين بقدرته وقضائه، يقول جحدر العكلي بعد أن أحسَّ بأنَّ لا ملجأ إلَّا الله، ولا مجير سواه لخلاصه ممَّا هو به:

إنّـــي دعوتـــك يـــا إلـــه محمـــدٍ دعـــوى وأولهـــا لـــيَ اســـتغفارُ

لتجيرني من شرِّ ما أنا خائف ربِّ البرية ليس مثلك جارُ

تُقضي ولا يُقضى عليك وإنَّما ربّي بعلمكَ تنزلُ الأقدارُ[٩]

فالشاعر وبعد صراع نفسي وشعور بالخوف من المجهول داخل السجن لجأ طالبًا المغفرة والإجارة من الله سبحانه وتتعالى للخلاص من السجن، ذلك السجن الذي كان يمثّل عاملًا رئيسًا من عوامل توبة هؤلاء الشعراء سجون حدثتنا المصادر التاريخية وأشعار الشعراء كانت من أقسى الأماكن شدةً وتعذيبًا، يقول الدكتور واضح عبد الصمد في كتابه (السجون وأثرها في الآداب العربية): إنَّ السجون التي استعملها السلطة أبان العصرين الأموي والعباسي كانت من أشد السجون قسوة على مر التاريخ، وهي سجون عكست قساوة السلطة، فسجن مثل سجن (دوَّار) و(المخيس) في اليمامة في عهد عبد الملك بن مروان كان من أكثر السجون غرابة وقسوة، ولم يكتفِ فيه السجانون بالحبس بل استعملوا أساليب تعذيب غريبة[١٠]، ومما لا شك فيه أنَّ دعوة الشاعر (جحدر المحرزي العكلي) السابقة إلى طلب الاستجارة من الله انعكاس لواقعه القاسي داخل السجن (سجن دوَّار)، يقول:

كانت منازلنا التي كُنّا بها شتى وألّف بيننا دوّارُ

سجنٌ يلاقي أهلُهُ من خوفه أزلًا ويمنع منهم الزوّارُ

يخشون مِقطرةً كأنَّ عمودها عِنْقٌ يُعرّقُ لحمها الجزَارُ[١١]

هنا ومن خلال هذه الأبيات وضعها الشاعر مباشرة لمعرفة الأسباب التي كانت وراء طلب التوبة والاجارة ألا وهي تلك السجون وما كانوا يلاقونه بداخلها من عذابات وألم، يقول غيلان بن الربيع:

إلى اللهِ أشكو محبسي في مخيّسٍ وقُربَ سجايا ربِّ حين أقيلُ[١٢]

ولكن السؤال الذي يدور في بال القارئ هنا وكذلك الباحث هو طبيعة هذه التوبة ونوعها من حيث هل هي توبة صادقة نابعة من مشاعر صادقة، ونفس قرَّرت عدم اللجوء إلى ممارسات منافية سابقة تتعلق باللصوصية وقطع الطرق والخروج من الأعراف أم أنَّها مجرد شعور مؤقت كان ينبئ بقرب نهاية الشاعر بسبب ما كان يلاقيه في السجن، وبعد خلاصه يعود مرة أخرى إلى أفعاله السابقة؟ والاجابة عن هذا السؤال تقودنا بالضرورة إلى البحث عن طبيعة حياته هؤلاء الشعراء بعد إعلانهم التوبة، وذلك يكمن في أشعارهم؛ لأنَّها تمثِّل المرآة العاكسة لمشاعرهم وطبيعة سلوكياتهم، يقول الشاعر جحد العكلي بعد أن منحه الحجاج بن يوسف الثقفي الاختيار بين الذهاب إلى أهله أو البقاء مع الحجاج وصحبته، فاختار الأخيرة، وهي مكافأة للشاعر بعد نزاله مع الأسر والفوز عليه داخل حلبة مغلقة:

إنَّ الليالي نجتْ بي فهي محسنةٌ لا شكَّ فيه من الديماس والأسرِ(١٣)

وبعد تلك الحادثة ونجاته من خول السجن يقول مؤمنًا قريبًا من الله تعالى، مسلِّمًا لقدره وقضائه معترفًا بقوته وإجارته وقبوله لدعوته:

يا نفسُ لا تجزعي إنّي إلى أمر وكلُّ نفسٍ إلى يوم ومقدار

وما يُقرّب يومي من مدى أملي فاقني حياءَك ترحالي وتسياري

إنّي إلى أجلٍ إن كنتِ عالمةً إليه ما منتهى علمي وآثاري

لله أنتِ فإن يعصمك فاعتصمي وإن كذبتِ فحسبي الله من جارِ

أناجيه سرًّا وناديه علانيةً والله يعلمُ إعلاني وإسراري

وما السعادةُ في الدنيا لذي أملٍ إنَّ السعيد الذي ينجو من النار(١٤)

وهو الشعور نفسه يشاركه فيه أيوب العنبري بعد توبته، إذ يقول:

خلّيتُ بابات جهل كنت أتبعها كما يودّع سفر عرضة الدار(١٥)

وبعد عذابات السجون وقسوتها قد تكون للتوبة وطلب المغفرة والعودة إلى الله تعالى أسباب أُخر، ومنها فراق الأهل والأحبة ورفاق العيش بعد أن بَعُدَ عنهم، أو غيبتهم صروف الدهر بالموت أو السجن، يقول علي بن الجهم:

سأخلعُ ثوبَ اللهو بعد أحبتي وأرفض طيبَ العيش بعدهم رفضا

كفى حزنًا أنَّ الخطوبَ سعت بنا وأنَّ بنات الدهر تركضنا ركضا

وأنّي وقفتُ بين (بثٍّ) ولوعةٍ فلا فرحَ يُرجى ولا أجل يُقضى

أقول وقد عيل اصطباري من النوى وأصبح دمعُ العين للشوق مُرْفضا(١٦)

فالشاعر وبعد ما آلت إليه أحواله من فراق للأهل والأصحاب أدرك بعدهم أنَّ الحياة أصبحت غير محببة ما دام الأسى هو المسيطر الرئيس عليها، فما يكون وما كان منه إلَّا التسليم والإيمان بالله تعالى والتوكل عليه، والعيش بنفس كريمة متسامحة مع محيطها الداخلي والخارجي، يقول:

توكلنا على ربِّ السماءِ وسلّمنا لأسباب القضاءِ

ووطّنا على غير الليالي نفوسًا سامحت بعد الإباء

وأفنيةُ الملوكِ مُحجباتٍ وبابُ اللهِ مبذول الغناءِ(١٧)

ويقول في موضع غير هذا:

من أرجو سواه لكشف ضرّي ولم أفزع إلى غير الدعاء(١٨)

وهو شعور يتشارك فيه مع معظم شعراء السجون، الذين وجدوا أنَّ خير ما يمكن أن يسعى إليه الإنسان بعد تلك الرحلة الشاقة رحلة السجن هو الإقرار والإذعان والاعتراف والتسليم والعياذ بالله وحده، فلا رجاء بعد رجائه، يقول هدبة بن الخشرم العذري:

أ ذا العرشِ إنّي مسلم بك عائذُ من النار ذو بثٍّ إليك فقيرُ

وإنّـي وإن قالـوا أميرٌ وتـابعٌ وحُرَّاسُ أبـوابٌ لهن حـريرُ

لأعلم أنَّ الأمر أمـرك إن تدن فربٌّ وإن تغفر فأنت غفورُ(١٩)

ويقول عماد الدين الأصبهاني:

فأرجو الإله، فعن قُربٍ بنصرتهِ سيكشف الله بلوى كلّ مكروبٍ(٢٠)

وفي خضم الحديث عن التوبة وفحواها وأسبابها نجد أنَّ الشعراء وهم في مخاضهم الأخير وفي محطتهم الأخيرة من الحياة كان الإحساس بالخوف وقرب دنو الأجل سببًا في طلبهم العفو والتوبة، إذ كان الموت شغلهم الشاغل، وأنَّ جذوة القلق والخوف أفسدت عليهم متعة الحياة، فما أرادوا إفساد الآخرة بعدم طلب المغفرة والعفو والتوبة، بعدما فقدوا إمكانية البقاء على قيد الحياة، ماداموا يعيشون في هذه الدائرة المظلمة (السجن)(٢١)، التي أصبحوا في ظلّها يشعرون بالموت وهم على قيد الحياة، على حدِّ قول الشاعر علي بن الجهم:

وإذا جاءنا السجَّانُ يومًا لحاجةٍ عجبنا وقلنا هذا من الدنيا(٢٢)

وفي ظل هذا الأمر وجدنا أنَّ شعراء السجون استوقفهم الزمن أمام حقيقة واحدة هذه الحقيقة التي عن طريقها يمكن مصالحة الذات المنكسرة، وتحقيق السعادة والرضا النفسي في ظل القلق، ولا سيما السلام الداخلي الذي لا يكون إلَّا باستشعار الشاعر بذاته وحريته التي فقدها في السجن، وإيمانه بعد ذلك بأنَّه لا يمكن الوصول إليه إلَّا عن طريق التوافق النفسي، وتقدير الذات، هذا من جانب، ومن جانب آخر اللجوء إلى التوبة وطلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى وبث الشكوى له، يقول علي بن الجهم:

إنّـي توكلـتُ علـى اللهِ لا أُشـرك بـالله ولا أكفـرُ

لا أدعــي القــدرة مــن دونــه　　　بـــالله حـــولي وبـــه أُقـــدِرُ

أشـكرهُ وإن كنـت فــي نعمــة　　　منـــه وإن أذنبــت أســتغفرُ

فلـــيس تـــوفيقي إلَّا بـــهِ　　　يعلـمُ مــا أُخفــي ومــا أظهــرُ

فهـــو الـــذي قلّـــدني أمــرهُ　　　إنْ أنـا لـم أشكرْ فمـن يشكرُ(٢٣)

فالشاعر وصل إلى مرحلة من الأمر بأنْ أصبح عاجزًا من دون قدرةِ الله تعالى وحوله، فلجأ إليه بعد رحلة من العبث والسجن، يقول في مرحلة من مراحل ما قبل التوبة:

نزلنا باب الكرخ أطيب منزلٍ　　　على مُحسنات من قيان المفضل(٢٤)

نستخلص من ذلك كلِّه أنَّ توبة هؤلاء الشعراء هي ردَّة فعل على ما فاتَ من حياتهم السابقة، وهو شعور يتشارك فيه جميع البشر على حدٍّ سواء، الشعراء وغيرهم، وهو أنَّ الإحساس بقرب الموت يدفع الإنسان إلى مراجعة حساباته السابقة مهما كان شأنها، ومهما كان عظم ذنوبه، ودناءة أفعاله ومخالفته للأعراف السائدة الدينية والاجتماعية، وخير ما يمكن ذكره هنا الشاعر (أبو محجن الثقفي) الذي عُرف بخروجه عمَّا هو متعارف عليه من تحريم للخمر والمجاهرة بشربه، فكانت أفعاله سببًا مقنعًا لدخوله السجن مرات عدَّة، كيف لا؟ وهو من عدَّ شربها مغنمة، يقول:

ألا اسـقني يـا صـاح خمـرًا فـإنّني　　　بمـا أنـزل الـرحمن فـي الخمـر عـــــــــالمُ

وجـد لـي بهـا صـرفًا لأزداد مأثمًـا　　　ففــي شـربها صـرفًا تـتم المـآثمُ

هـي النـارُ إلَّا أنّنـي نلـت لـذةً وقضيتُ أوطاري وإن لامَ لائمُ(٢٥)

فأمر سعد بن أبي وقاص بحبسه بسبب شعره هذا، وعدم انتهائه من شرب الخمر، فقال أبو محجن وهو قابع في السجن:

كفى حزنًا أن تطعن الخيل بالقنا وأصبح مشدودًا عليّ وثاقيا(٢٦)

إلَّا أنَّ بصيرةِ الشاعر فيما بعد ونظن بعد قرب موته أو بعدما لاحَ النور لطريقه جرّح الشاعر بتوبته إلى الله تعالى، وهو القائل:

أتـوب إلـى اللهِ الـرحيم فأنَّـهُ غفـورٌ لـذنب المـرءِ مـا لـم يعـاودِ

ولسـتُ إلـى الصـهباء مـا عشـتُ عائـدًا ولا تابعًـا قـول السـفيه المعانـدِ

وكيـف وقـد أعطيـتُ ربـي مواثقًـا أعـودُ لهـا والله ذو العـرش شـاهدِ(٢٧)

فالشاعر لم يعلن التوبة فحسب بل التوبة بشرطها وشروطها بعدم العودة إلى ارتكاب الذنوب التي توجب غضب الله تعالى، وغضب السلطة التي يكون السجن لها نتيجة حتمية.

ثانيًا: التوبة لغير الله:

لجأ شعراء السجون إلى طلب التوبة والعفو والسماح من أصحاب الحكم والخلفاء والولاة خلاصًا من براثن السجن وظلماته نادمين منكسرين متيقنين بأنَّ الخلاص والخروج بأمرهم من بعد الله سبحانه وتعالى، والقرار لهم وحدهم في تخليصهم ممَّا هم فيه، وبذا عكست بعض أشعارهم هذه المشاعر، وترجمت الحالة النفسية المطربة الخائفة، فما كان منها إلَّا أن تبوح بطلب التوبة والمغفرة، وهم يعيشون مرحلة صعبة في حياتهم، يقول السمهري المحرزي العكلي من داخل السجن:

لقد جمع الحدّادُ بينَ عصابةٍ ... تُسائلُ في الأسْجان ماذا ذنوبها؟

مُقرّنة الأقدامِ في السجن تشتكي ... ضنابيب قد أمست مُبينًا عُلُوبها

إذا حرسيٌّ قعقع البابَ ارعدتْ ... فرائص أقوامٍ وطارت قلوبها(٢٨)

فالشاعر عن طريق وصفه للسجن والحياة التي يعشها المحبوسون داخله، وما تشهده من عذاب وخوف وانتظار للفرج، عكس تلك الحياة، وأعطى صورة واضحة عنها، وهو لم يكن وحده من ترجم هذه الحياة شعرًا، بل اشترك معه كثير من الشعراء، يقول جحدر العكلي واصفًا من يسكن في تلك السجون:

كأنَّ ساكنه حيًّا حشاشتهُ ... ميّتٌ تردد منه السمُّ في الجسد(٢٩)

ويقول دُوير بن دؤالة العقيلي:

أ سجنًا وقيدًا واغترابًا وعُسرةً ... وذكرى حبيبٍ إنَّ ذا لعظيمُ

ويشاركه هُدبة بن الخشرم العذري مخاطبًا زوجته من بعيد وهو مسجون:

إنّي عداني أن أزورك مُحكمٌ ... متى ما أُحرّك فيه ساقي يصخبِ

حديدٌ ومرصوص بشيدٍ وجندلٍ ... له شُرفاتٌ مرقبٌ فوقَ مُرقبِ

يخبّرني تُرّاعهُ بين حلقة ... أزوم إذا عذَّت وكبلٍ مُضبَّبِ(٣٠)

هذه الحياة والعذابات من داخل السجن كانت سببًا مقنعًا لأن يندفعوا إلى طلب العفو والمغفرة من صاحب الشأن الخليفة أو الوالي وما سواهما، فما كان منهم إلَّا أن يترجموا ذلك شعرًا، فكان وسلتهم لإيصال صوتهم، وبثّ شكواهم، وإعلان حالة الانكسار التي يمرون بها،

يقول الخطيم المحرزي العكلي طالبًا العفو من سليمان بن عبد الملك، وهو خائف مرهوب من الحالة التي وصل إليها وهو داخل السجن:

أعذني عياذًا يا سليمان أنني أتيتك لمًّا لم أجد عنك مقعدا

لتؤمنني خوف الذي أنا خائف وتبلغني ريقي وتنظرني غدا

فرادًا إليك من ورائي ورهبة وكنتَ أحقَّ الناس أن اتعمدا(٣١)

فالشاعر لجأ إلى طلب العفو من سليمان بعدما وصلت به الحالة إلى ذلك، وهو قد مهّدَ لتلك الحالة الصعبة التي وصل إليها حين قال:

وقائلةً يومًا وقد جئتُ زائرًا رأيت الخطيم بعدنا قد تخدّدا(٣٢)

تخدّدا: أي هَزُلَ ونقص وآلَ إلى الذبول بسبب الحبس، فما كان من الشاعر إلَّا أنْ يستنجد بسليمان طالبًا منه العفو معلنًا عن حالة انكسارية ومشاعر تُعبّرُ عن حالة الضعف التي وصل إليها بعد أن كان فارسًا بطلًا تشهد له رؤوس الأعداء حين كان يفلقها بحسامه المهند، ونجد كذلك أنَّ هؤلاء الشعراء ذكروا ما كانوا يتمتعون به من فروسية وبطولة وشجاعة، وهي صفات كانوا قد بثوها في طيّات نصوصهم التي أعلنوا بها التوبة والشكوى علَّها تكون شافعة لهم لتخليصهم من السجن حين تصل إلى أسماع المسؤول، يقول الخطيم إلى جانب ما ذكرناه:

ومسعرُ حربٍ كنتُ ممن أشبُّها إذا ما الجبانُ النكس هابَ وعرّدا

وأزدادُ فـي رغـمِ العـدِّ لجاجـةً وأمكِنُ من رأسِ العدِّ المهندا(٣٣)

فالشاعر مدرك لأهمية أن يكون فارسًا بطلًا في نظر الخليفة هسى أن يكون في هذا سبيل للخروج ولا سيما أنَّ العرب كانت تُقدِّر وتثمّن شجاعة الشعراء وبطولاتهم، يقول الدكتور نوري حمودي القيسي: ((إنَّما هي أخلاق وقيم اجتماعية))[٣٤]، وإلى جانب ذكر الفروسية والبطولة والشجاعة مع الأشعار التي أعلنوا فيها توبتهم وبث شكواهم من السجن كانت هناك صفات أُخر ذكروها، منها الكرم، يقول الخطيم المحرزي في مقدمة قصيدة له يستعطف قومه طالبًا منهم إجارته من السجن معلنًا توبته وهو في سجن بنجران:

وتشهد لي العوذ المطافيلُ أنّني أبو الضيف أقري حين لا أحدٌ يقري[٣٥]

وهذه المشاعر لم ينفرد بها شاعرٌ واحد بل اشترك فيها كثير من الشعراء الذين كان مكان واحد يجمعهم ألا وهو السجن، فعمدوا إلى التمهيد في أشعارهم التي كانت تحمل همومهم وخوفهم وإعلان توبتهم، سواء كان ذلك بتصريح مباشر أو غير مباشر، يقول جحدر العكلي:

أشكو إلى الخير إبراهيم في غير جُرمٍ وإخراجي من الدارِ مظلمتي

الدهر أرسف من كبلٍ أعالجهُ وحلقة قاربوا فيها بمسمارِ[٣٦]

هذه الأبيات كانت تمهيدًا ومقدمة لقوله:

وأعظمُ الناسِ عفوًا عند مقدرةٍ وأبعدُ الناسِ من ذمٍّ ومن عارِ

أنعم عليّ بنعمى منك سابغة من سيب أروع نفّاعٍ وضرَّارِ[٣٧]

ولا بدَّ من التساؤل هنا: لماذا عمدَ هؤلاء الشعراء إلى طلب التوبة وبثّ الشكوى، وضرورة التخلص من عذابات السجن، وقد أجاب الباحث عن جزء من هذا التساؤل حين

ذكر ما كانت تحويه سجون العصرين الأموي والعباسي من حياة قاسية جدًّا، حيث سجن (الديماس، ودوّار، والمخيّس)[٣٨]، وهناك سبب آخر، قد يكون هو الآخر ممَّا دعاء شعراء السجون إلى طلب التوبة وبثّ الشكوى ألا وهو الحرية المطلقة، التي كان يعيشها هؤلاء الشعراء في الصحراء والوديان، فهم لا يتنفسون سوى هواء الفلوات والأراضي الشاسعة، فضلًا عن الحياة الاجتماعية التي يعيشونها مع أقرانهم إذ تربطهم روابط العمل أو بالأحرى نوع العمل، إذ كانوا ممَّن يغير على القوافل أو يقطع الطريق أو ما شابه هذا، فعاشوا ظروفًا متنوعة في حياتهم، فشكَّلت هذه الحياة وهذه السلوكيات التي عاشوها ومارسوها في حياة ما قبل السجن هاجسًا ومطلبًا نفسيًا فعليًا للخروج من السجن، يقول جحدر العكلي:

بكلِّ صروف الدهر قد عشتُ حقبةً وقد حملتني بينها كلّ محلِ[٣٩]

ويقول عبيد بن أيوب العنبري وهو داخل السجن مستذكرًا حياة الصحراء والفلوات، والحرية:

ألا يا ظباء الوحش لا تشهرنني وأخفيني إذ كنتُ فيكنَّ خافيا

أكلتُ عروق الشّرْي معكُنّ والتوى بحلقي نور القفرِ حتى ورانيا

وقد لقيت منّي السِبَاعُ بليَّةً وقد لاقت الغيلان مني الدواهيا

أبيتُ ضجيع الأسود والجون في الهوى كثيرًا وأثناء الحشائش وساديا

إذا هَجْنَ في حجرهنَّ اكتنفني فليت سليمان بن وبرٍ يرانيا[٤٠]

هذان النموذجان من حياة الشاعرين قبل دخولهما إلى السجن كانت هاجسًا ومدعاة وسببًا فيما بعد لأن يطلبا التوبة ويقدما الشكوى، يقول جحدر العكلي طالبًا التوبة بصورة غير مباشرة باثًّا شكواه لإبراهيم بن عربي والي اليمامة لإخراجه من سجن (دوَّار):

أشكو إلى الخير إبراهيم مظلمتي في غير جُرمٍ وإخراجي من الدارِ

أدعوهُ دعوةَ مظلومٍ لينصرني ثم استغثتُ بذي نعمى واخطارِ[٤١]

ويقول عبيد بن أيوب بعد استذكار حياة ما قبل السجن:

يا ربِّ عَفْوكَ عن ذي توبةٍ وجلٍ كأنَّهُ من جذارِ الناس مجنونِ[٤٢]

خلاصة البحث:

أولًا: إنَّ الدوافع الرئيسة التي كانت تدفع الشعراء إلى قول هذه الأشعار هي حياة السجن القاسية والمعاملة الصعبة التي كان يعشونها داخل سجون بني أمية وبني العبَّاس، فما كان منهم إلَّا طلب التوبة والعفو وبثّ الشكوى، فضلًا عن ذلك إنَّ الحياة السابقة التي عاشوها المفعمة بالحرية كانت دافعًا آخر للمطالبة بالخروج من السجن وفك القيد مقابل الحرية.

ثانيًا: عكست هذه الأشعار الحالة الشعورية والنفسية لهؤلاء الشعراء، فكانت متونًا محملة بكثير من العواطف الجيَّاشة والمشاعر الصادقة إزاء الله سبحانه وتعالى، وإزاء الحاكم، وحتى مع أنفسهم، فقد كانوا صادقين، فضلًا عن ذلك فهذه الأشعار أثبتت أنَّ الإبداع داخل السجن عملية تأثريّة بكلِّ ما يحيط بالشاعر.

ثالثًا: إنَّ الإحساس بالموت والشعور بدنوّ الأجل، والنهاية المحتومة، كلُّ هذا كان وراء طلب التوبة والمغفرة، والعمل على استعادة الثقة مع النفس، للفوز بحسن الخاتمة، ورضا الله سبحانه وتعالى.

رابعًا: عكست هذه الأشعار التحول الذي أصابَ هؤلاء الشعراء من حالة المواجهة والرفض والفخر إلى حالة الضعف والندم والانكسار.

الهوامش:

(١) القرآن الكريم، سورة الشورى: آية: ٢٥.

(٢) شعر يعقوب الحموي: عالم الأدب: الموقع الإلكتروني: addbworld.com

(٣) ديوان علي بن الجهم: ص٤٧.

(٤) المصدر نفسه: ص

(٥) المصدر نفسه: ص٩٦.

(٦) ديوان اللصوص: حمد نبيل طريفي: ص٣٩٦ – ٣٩٧.

(٧) المصدر نفسه: ص٣٩٢.

(٨) المصدر نفسه: ص٣٩٧.

(٩) المصدر نفسه: ص١٥٨.

(١٠) ينظر: السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي: د. واضح الصمد: ص٨٦ – ٨٧.

(١١) ديوان اللصوص: ص١٥٨.

(١٢) المصدر نفسه: ص٣٣.

(١٣) المصدر نفسه: ص١٥٥.

(١٤) المصدر نفسه: ص١٥٩.

(١٥) المصدر نفسه: ٣٩٧.

(١٦) ديوان علي بن الجهم: ص٤٨.

(١٧) المصدر نفسه: ص٨١.

(١٨) المصدر نفسه: ص٨٣.

(١٩) ديوان هدبة بن الخشرم: ص٣٣.

(٢٠) ديوان عماد الدين الأصبهاني: ص٨٤.

(٢١) ينظر: الفضاء الشعري عند الشعراء اللصوص في العصرين الجاهلي والأموي: د. حسين علي الدخيلي: ص٢٢٠.

(٢٢) ديوان علي بن الجهم: ص٩٦.

(٢٣) المصدر نفسه: ص٧٤.

(٢٤) المصدر نفسه:

(٢٥) ديوان أبي محجن الثقفي: ص٦٨.

(٢٦) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٧) المصدر نفسه: ص٦٧.

(٢٨) ديوان اللصوص: ج١: ص٢٧١.

(٢٩) المصدر نفسه، ص١٥٥.

(٣٠) ديوان هدبة بن الخشرم: ص٣١.

(٣١) ديوان اللصوص: ج١: ص٢٣٩ – ص٢٤٠.

(٣٢) المصدر نفسه: ص٢٣٥.

(٣٣) المصدر نفسه: ص٢٣٨.

(٣٤) ينظر: الفروسية في الشعر الجاهلي: نوري حمودي القيسي: ص١٩٢.

(٣٥) ديوان اللصوص: ج١: ص٢٤١.

(٣٦) المصدر نفسه: ص١٦٠.

(٣٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٣٨) ينظر: السجون وأثرها في الآداب العربية: ص٨٥ – ٨٦ – ٨٧.

(٣٩) ديوان اللصوص: ج١: ص١٦٨.

(٤٠) المصدر نفسه: ص٤١٥.

(٤١) المصدر نفسه: ص١٦٠.

(٤٢) المصدر نفسه: ص٤١٢.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.

٢. محمد نبيل طريفي، ٢٠٠٤م، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١.

٣. خليل مردم بك، ١٩٨٠م، ديوان علي بن الجهم، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢،.

٤. يحيى الجبوري، ١٩٨٦م، شعر هدبة بن الخشرم العذري، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط٢.

٥. ناظم رشيد، ١٩٨٣م، ديوان عماد الدين الأصبهاني، كلية الآداب، مطابع جامعة الموصل، مكتب التراث.

٦. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، شعر أبو محجن الثقفي.
٧. حسين علي الدخيلي، ٢٠١١م، الفضاء الشعري عند الشعراء اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
٨. واضح الصمد، ١٩٩٥م، السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١.
٩. نوري حمودي القيسي، ١٩٦٤م، الفروسية في الشعر الجاهلي، مكتبة النهضة، مطابع دار التضامن، بغداد، ط١.